عبد الحميد الديب

حياته وشعره

بقلم

مصطفى الرشيدي

obeikandl.com

دار التعاون الصحفي

٧ شارع مجلس النواب بمصر

تليفون ٥٧٣٨١ سجل تجاري ٤٣٧٤١

مكتبة ومطبعة وجميع أعمال الصحافة والنشر والاعلان

لها توكيلات بمعظم مدن القطر المصري والبلاد العربية

الدعاية والاعلان

تقوم الدار بالاتفاق مع المعلنين على نشر اعلاناتهم بأجور مناسبة ، كل صحيفة حسب تعريفتها الخاصة ، ويقوم بهذا العمل مندوبون أمناء ورسامون وخطاطون وخبراء من الفنيين . والدار مسئولة أمام الصحف عن سداد أجور الاعلانات مهما كانت الأحوال

الترجمة والتحرير

تقوم الدار بتعريب القصص والكتب والترجمة والتحرير في مختلف النواحي نظير ٤٠ قرشا عن كل ألف كلمة . ويقوم بهذا العمل كتاب من خيرة أدباء مصر

الرسم والتصوير

هذا القسم يقوم بتقديم صور فوتوغرافية وكليشيهات تورية للصحف والكتب وقراءتها حسب الطلب . كصور الحوادث وصور العظماء ومشاهد القصص والروايات عملة أحسن تمثيل . كما يقوم بتحميض الأفلام بالسرعة التي يستدعيها العمل الصحفي . وقسم لتكبير وتلوين الصور . وعمل الرسوم الهندسية للمباني والرخص .

كلمة الناشر

لاشك ان الحركة الأدبية في مصر كانت في حاجة إلي ناشر من صنف يختلف عن الناشرين « التجار » ، كانت فى حاجة إلى رجل مهنته « الكتابة » قبل « التجارة » عنده ملكة الاحساس بحاجة القراء ، قبل الاحساس بلذة الكسب وادخار المال .

ولقد احسست بضع مرات بحاجة الحياة الأدبية إلى بضع كتب فجاهدت قدر طاقتى بين زحام الناشرين وافلحت فعلا فى ان أنشر بعض ماأحسست بالحاجة الملحة اليه .

ومات الديب ...

وشعرت فى التو بضرورة شـــعر الديب للمكتبة العربية .

ولكن طلعت علينا الصحف يومها باعلانات من بعض الأدباء يلتمسون ممن يحفظ شعراً للديب ان يوافيهم به ليطبعوا ديوانه .

وحمدت الله ان احس هؤلاء الأفاضل احساسى . وكفونى مؤونة البحث والتنقيب . وتكاليف الطبع والنشر . ولكن مضت الشهور ، واوشكت ان تلحقها السنون ، ولم يظهر للديب او ديوانه اى خبر .

وأشفقت ان يغمر الديب النسيان بعد مماته ، كما جر عليه ذيوله فى حياته . فقمت ابحث من فورى عن احد اصدقاء الديب المقربين ليكتب للقراء عن الرجل الذى عرفه الناس بعد موته وتعطشوا لأخباره

ووجدت هذا الصديق قريبا منى ، وجدته في شخص شقيقي فتحي بل ووجدته سخيا ـ على غير عادته ـ فى شروطه كما وجدت الرسام الكبير الأستاذ رخا ، والخطاط الاستاذ سيد عبد القوى نبيلين فاضلين وكلهم ساهموا فى كرم وسخاء ، جدير بأن نذكر فيشكرهم

مصطفى محرم

مدير دار التعاون الصحفى

أول فبراير سنة ١٩٤٤

مشاكل الحمل ـ العقم والاجهاض ومنع الحمل وتحديد جنس المولود	١٠
العلاج الطبيعي ـ علاج جميع الأمراض بالطرق الطبيعية	١٠
معجم الأدباء ـ اكبر موسوعة عربية في ٢٠ جزء ٦٠٠٠ صفحة	٣٠٠
في قلب ـ مجموعة رقيقة من أغاني الحب للاستاذ فتحي الرملي	٣
ديوان عزت صقر ـ للزجال الكبير عزت صقر	١٧
للبعث ـ مسرحية مصرية	٣
للساخرة ـ قصة مصرية	٢
أغاريد للشاعر الملهم الأستاذ محمد فهمي	٢٠
الايحاء ـ بحث متقدم في علم النفس	١٠
القوى الخفية ـ عن العقل الباطن واسرار النفس	١٠
الموجات العقلية واسرار الاتصالات الخفية	٢٠
الشخصية ـ كتاب حديث في علم الفراسة	١٠
فن الزواج ـ او كيف تتزوجين ولو كنت ارملة	١٠
اصول التغذية الصحية الصحيحة ـ ادق ما كتب في الثقافة الصحية	١٠
التمرين للصحة والقوة والجسم الكامل	١٠
العلاج الشمسي	١٠
عبد الحميد الديب ـ حياته وشعره بقلم فتحي الرملي	٥

ترسل هذه الكتب بالأسعار الموضحة امامها لكل من يطلبها . اكتب طلبك وارفقه بالقيمة وارسله باسم الأستاذ مصطفى محرم مدير دار التعاون الصحفي ـ ٧ شارع مجلس النواب ـ مصر

obeikandl.com

قسم التوكيلات

ان لدينا توكيلات من صحف كثيرة . ونحن على استعداد للقيام بالوكالة عن أي صحف أخرى سواء في مصر او الأقاليم او البلاد العربية . ونحن نخدم اصحاب هذه الصحف فى كل ما يتعلق بمهنتهم ، كتحصيل اشتراكات او اجور اعلانات او مواقتهم بالأخبار والصور الخ

اشتراكات الصحف

نقبل من حضرات قراء الصحف اشتراكات شهرية او سنوية عن جميع الصحف والمجلات بالأجور الآتية :

	اشتراكها السنوى	والشهرى
اى صحيفة يومية	٣٠ قرشا	٣
» » اسبوعية ثمنها ١٠ مليمات	» ٤٥	» ٤
» » » » ٢٠ مليم	» ٨٥	» ٨
» » شهرية » ١٠٠ مليم	» ١٠٠	» ١٠
» » » » ٣٠ مليم	» ٣٠	» ٣

الطبع والنشر

تقوم الدار بطبع الصحف وكتب المؤلفين لحسابهم او لحساب الدار بأجور مناسبة كما تقوم بتصريف الكتب والمطبوعات التى لا يصرف اصحابها طرق توزيعها ونشرها . كما تشترى جميع الكتب سواء قديمة او جديدة بأسعار جيدة جدا ومهما بلغت كميتها

الرسائل والنقود

جميع المراسلات والنقود ترسل باسم الأستاذ مصطفى تحرم مدير دار التعاون الصحفى بشارع مجلس النواب رقم ٧ بالقاهرة . ونقبل النقود شيكات او حوالات او طوابع بوسته اواوراق مالية

مكتبة دار التعاون الصحفى

المركز الرئيسى
٢ شارع مجلس النواب مصر
تليفون ٧٣٨١ ٥

سجل تجارى
رقم ٤٣٧٤١

الفرع الأول
٣ شارع نوبار ـ مصر
تليفون ٣٩٢٢ ٥

قائمة أسعار الكتب

الانتحار ـ اثره فى الجسم والعقل وطريقة ابطاله	٣
كيف تعزف على العود بدون مدرس	٣٠
رشيد الحرية ـ قصة وطنية واقعية رائعة (بالصور الملونة)	٢
العلاقات الزوجية ـ درة مؤلفات الدكتورة ماري ستوبس	١٠
القصاص ـ مسرحية من روائع الأدب الانجليزى	٥
وادى الغيبان ـ مجموعة قصص مصرية عالية	١٠
ديوان بيرم ـ لأمير الزجالين محمود بيرم التونسى	٥
الشواق للشاعر الكبير محمود ابو الوفا	١٥
اناشيد دينية للشاعر الكبير محمود ابو الوفا	٥
اناشيد عسكرية للشاعر الكبير محمود ابو الوفا	٥
المسألة الجنسية ـ اعظم مرجع جنسى فى العالم . جزآن . ثمن الجزء	٢٠
العادة السرية عند الذكور والاناث وطرقها واسبابها وعلاجها	١٠
كرايتون البارع ـ قصة تمثيلية تناقش فكرة المساواة	٥
الحب والزواج ـ معلومات دقيقة هامة للفتيان والفتيات	١٠
لماذا تفعل المرأة ـ قصص دامية بين دور البغاء	١٠
الضعف التناسلى فى الرجال والنساء والوقاية منه وعلاجه	١٠

obeikandl.com

الشاعر البائس

منذ عشر سنوات التقيت بعبد الحميد الديب لأول مرة . . .

كان ذلك في نادي احدي الجمعيات ، وقد جلس يومها يسمع « قفشيات » الشبان الذين اجتمعوا حوله ، ويقهقه لها بملء روحه . فتنفرج شفتاه عن أسنان صفراء متسخة ، يحيط بها وجه لو أخذ فيه رأيه قبل خلقته لما سمح بجزء واحد منه . . . ومع ذلك فقد كانت ضحكاته وابتساماته صافية ، خالصة ، حية ، أشبه ماتكون بابتسامات السيد المسيح !

وكان الشاعر البائس يومها مادة خصبة للقفش والتفكيت . . فهو يلبس جوربا احدى قطعتيه حمراء ، والأخرى زرقاء . وهو يدخن من علبة سجائر تحتوى على مجموعة من الأصناف المختلفة بينها الفيل ، والفلاح ، والنبيل ، والممتاز ، والمعدن . . الخ . .

وانبرى واحد من هؤلاء يسأله أحواله ، ثم يلح عليه أن يسمع « الاخوان » قصيدة « جحر الذئب » ولازلت أذكر منها إلي اليوم :

أفي غرفتي يارب أم أنا في لحدي ... الاشد ما ألقى من الزمن الوغد
فاهدأ أنفاسي تكاد تهدها ... وأيسر لمسي في بنايتها يبدي
تراني بها كل الاثاث فعطفي ... فراش لنومي أو وقاء من البرد
وأما وسادتي بها فجرائد ... تجدد اذ تبلى على محجر صلد
تعاكسني فيها الأفاعي جريئة ... وفي جوها الأمراض تفتك أو تعدي
أرى النمل يخشى الناس الا بأرضها ... فارجله أمضى من الصارم المهند

تعلمت فيها صبر أيوب في الضنى وذقت هزال الجوع أكثر من فاندي
بجوارك يا ربي لمثلي رحمة فحذني إلى النيران لا جنة الخلد

لم أكن قد سمعت عن صاحبنا أو عرفته قبل ذلك اليوم ، فما كاد يجمع نفسه وينصرف حتى هممت أسأل عنه ، غير أنهم كفوني بتعليقاتهم عليه مؤونة السؤال !

وأستطيع الآن أن أرسم لحياته هذه الصورة السريعة ، فأقول أنه أحد أبناء أسرة متوسطة في قرية كمنيش مركز منوف ، تاجرت بالقطن فارتفعت فجأة ، وانخفضت فجأة ، فعاش حياتين ، وذاق طعمين مختلفين من هذه الدنيا . وقد هزت الأحداث التي مرت به نفسه فزلزلت كيانه ، وأحدثت اضطرابا عنيفا في عواطفه وأحاسيسه ، واصابه الحرمان في اعقاب سعة ، وهكذا اشتركت دنيا كاملة من المتناقضات في اخراج انسان غريب فيه رقة الشاعر وقسوة الثائر . . . له قلب طفل ، وعقل فيلسوف ، سريع الغضب سريع الرضا ، عبقري حين يخلو إلى نفسه ، تافه حين يجتمع بالناس !

له كما لكل انسان عيوبه ، وقد يكون أوفر من غيره نصيبا في هذا الباب ، ولكن هذه العيوب ليست من صنع نفسه . . . انها وليدة الظروف التي مر بها ، والمجتمع الذي احتواه ، والبيئة التي عاش فيها ، فالحقد ، وهو أبرز عيوبه على الاطلاق ، هو بلاشك نتيجة طبيعية لاحساسه بالظلم ، هذا الاحساس الذي كان يشعله ايمانه بعبقريته ، واعجابه بنفسه ، ويكفي أن تعلم أن الجوع والعوز الذي لازمه كظله لم يمنعه أن يقول :

أنا ملك عبقرى الجـــلال وان صدف التاج عن مفرقه

وهنا نقف لنسجل له أن ايمانه كان يتزعزع بكل شيء الا بنفسه وبعبقريته وبقوته ، كان يلقى تبعة فقره على سوء حظه . ويلقى تبعة سوء الحظ على حسد الحاقدين او محاربة المنافقين ، وحق هـــذا يلقى تبعته على نبله وكرم أخلاقه ! ... إسمعه وهو يقول فى احدى قصائده :

حظى ومصرعه فى اين أخلاقى وفيض عطفى على قومى واشفاقى
ومن حبته الطلا أخلاف نشوتها عداه على الكأس طيراً أو على الساقى
بين النجوم اناسى قد رفعتهمو إلى السماء فصاروا باب أرزاقى
وكنت نوح سفين انشئت حرما للعالمين فجازونى باغراقى
يا امة بجهلتى وهى عالمة أن الكواكب من نورى واشراقى
أعيش فيكم بلا أهل ولا وطن كيش متضع المعروف أناق
وليس لى من حبيب فى ديارهمو إلا الحبيبين الفلاحى وأوراقى
لم أدر ماذا طعمتم فى موائدكم لحم الذبيحة أم لحمى وأخلاقى

وقد سكب الديب فى هذه الأبيات روحه ، تذكر نفسه ، وتذكر بؤسه ، ثم حقد فاستحال حقده الى ثورة على هؤلاء الذين توهم أنهم طاردوه وحاربوه !

والآن نعود الى قصة الشاعر اليائس . . .

منذ ربع قرن جاء إلى القاهرة مبعوثا من أهله إلى الأزهر ، وفى حى الحسين ألقى عصا التيار . فاستأجر حجرة متواضعة فى « قصر الشوق » لم تلبث ان أصبحت ناديا لحزب !

أجل . . . فقد افتتح حياته العامة سياسيا ، فألف مع زميله الشيخ محمد بدير ـ المحامى الشرعى الآن ـ حزبا اطلق عليه : « حزب العطف على الانسانية » ثم عاد فألغاه بعد بضعة شهور ، على اثر صورة كاريكاتورية نشرتها مجلة الكشكول إذ ذاك ، وكانت تمثله وسكرتيره الشيخ بدير ينهال فوق رأسه بفردة حذاء !!

وترك الأزهر بعد قليل ليصبح طالبا فى دار العلوم . . . وكل أبناء دار العلوم بدأ عهد الطيب الأديب يقرض الشعر . . . وكأى طالب أيضا لم يتعد شعره حدود أدراجه وكراريسه إلى ان كان ذات مساء . . .

ساقته الصدفة إلى بولاق ، وهناك اختار إحدى المقاهى البلدية ليقضى فيها بعض فراغه فطلب شايا ، وجلس يسترق السمع إلى آخر كان يجلس فى الركن المقابل يلوك فى فمه شطرة من اغنية هى :

« والله تستاهل يا قلبى »

ظل يرددها عشرات المرات ولا يتمها ، أو هو يعالج ان يتمها فلا يستطيع !

ولاحظ الديب ذلك . فتقدم منه وقال له متطفلا ... اقترح أن تتمها هكذا :

والله تستاهل ياقلبي ليه تميل ما كنت خالي
انت اسباب كل كربي انت اسباب ماجرالي

وكاد الرجل يطير فرحا ، فقد قام من فوره فاحتضن طالب دار العلوم ، وراح يقبله بالقبلات ، وقدم له نفسه ، فاذا هو الفنان الخالد :

« سيد درويش »

في طاوية الكوكايين

دخل عبد الحميد الديب في دور جديد من ادوار حياته ...

ذلك ان الفنان سيد درويش كان في حاجة إلى شاعر يغنيه ، ويجد في الديب قصائده المنشودة .

وكان سيد درويش سخيا مسرفا فأغدق عليه المال ، واعطاه اكثر مما كان يحتاج ...

ولم يدرك الكارثة التي اوشكت ان تقضي عليه . فقد كان في غمرة الارباح التي انهالت عليه فانتقل مرة واحدة الى فيلا فخمة ، وبدأ يزاول حياة الترف والنعيم ...

لم يدرك هذه الكارثة إلا يوم مات سيد درويش فجأة ، وكان أهله من قبل قد أفلسوا . فانقطعت به أسباب الرزق ، وترك الفيلا ليقضي لياليه متسكعا في الشوارع ، هائما طول الليل ، حتى اذا ما انتهى به الطواف ذات ليلة عند الفيلا التي كان يسكنها ايام سعادته ، وقف يناجيها في واحدة من عيون قصائده :

لو استطيع البكا يا أيها الطلل ... بكيت حتى شكت من دمعي المقل
أرى الحوادث آسادا مقذفة ... علي دون الورى تعدو وتقتتل
فكم تصوح عودي بعد نضرته ... وكم خبا في دياجي عمري الامل
وكم دعت لي أمي وهي باكية ... وكم دعا لي ابي يقظان يبتهل
كأن حظي رحيق الدهر يشربها ... بكرا معتقة فالدهر بي ثمل

اذا تطلبت عيشي مت من كمد ... وان تطلبت حيني بعد الاجل
واجلس الليل في صحبي اسامرهم ... وكلهم بجمالي رقتي خفلوا
حتى اذا سلموا للعود وانصرفوا ... سريت جوعان يفري مزمي الكلل
جوعان ! يا محنة اريت على بلدي ... كأن ليلي بيوم البعث متصل

ويطول فصلا ليل الشاعر كاتباً لنفسه في هذه القصيدة وكما تنبأ بذلك أيضا في قصيدة أخرى رثى بها نفسه فقال :

وداعا شبابي في ربيع شبابي ... وأهلا حسابي قبل يوم حسابي
وما يبتغي من عاش غير موفق ... ثلاثين عاما في أسى وعذاب
أماني تفريها الخطوب رايتها ... كأشلاء قتلى في رءوس حراب
ولو أن وهاب الحظوظ أراد لي ... سلامة احداها لخفف ما بي
ولكنها ماتت بليلة عرسها ... ومن دمها الغالي جعلت خضابي

وكعادته أمسك بخناق « سوء الحظ » وراح يلقي عليه مسئولية ما يعانيه من عوز وحرمان .

استهتار

لقد ظل . . . يبيع عيون قصائده لطلاب الشهرة بالقروش والملاليم ، ثم يهرع بها إلى حي « الزهار » حيث أخذت المخدرات كل تفكيره ، وتناولت نفس أسلوبه فأثرت عليه . . ألم يستخدم لفظتي « الصبوح » و « الغبوق » — وكلاهما اصطلاح مشهور بين المدمنين — أم يستخدمها في التعبير عندما نظم قصيدته المعروفة :

أقضي صبوحي في المنى وغبوقي إني امرؤ كسدت بقوس سوقيا

وطارت أنباء الشاعر المنكوب هنا وهناك ، وفي ذات يوم وقعت في يده صحيفة الأهرام فقرأ فيها مقالا طويلا عنه ، كان عنوانه « الأديب الشهم » وكان موضوعه مستمدا من العنوان . وقد تأثر الديب بما جاء فيه عنه ، وعز عليه أن يعرف الناس أمر انحلاله ، فنظم كثيراً من الشعر ينفي فيه عن نفسه تهمة الادمان والانحلال !

ومن أروع ما نظم في هذا الصدد ، هذه الأبيات التي بعث بها إلى صديقة له اختارها من بين مدمنات حي الزهار . . قال لها في قصيدته تلك :

أفاطم إن الناس قد أكلوا عرضي وبت لعينا في السموات والأرض
يخولون شمام وماتم معطس سوى الوردة الفيحاء والنرجس الغض
معاذ شبابي أن يبيت نضيره هشيما وأن أقضي على جسمي الغض

أليس بياض الكوكاين مبشراً بأسود عيش في خياهبه أقضي
فمن فقد عقل كان مبعث حكمة إلى البؤس في ذل السؤال أو القرض
إلى السجن بين المجرمين يؤودني زمان كيوم الحشر يأتي ولا يمضي

واعتقد أن هذه الأبيات وثيقة هامة تعطيك فكرة عن التطور الذي حدث في حياة الديب . فقد كان — كما نرى من قصيدته — شابا خجولا يحاول أن يستر عن الناس عيوبه ، فاذا به ينقلب بعد سنوات متمردا على التقاليد ، هازئا بالناس ، واذا هو يدافع عن ادمانه المخدرات والمسكرات معا ، فيقول مخاطبا مخمورا من أصدقائه :

هات المدام فدين الله تيسير وأسعد الناس مخدور ومخمور
هات المدام ولا تعرض لمتربق مهما غلا العيش لم تغل القوارير
هات المدام الصبوح البكر يحملها اليك أخنث ساجي الطرف مخمور
اذا دعوت تراخى عنك معتذرا واسكرت كالطل منه المعاذير
فديتها حانة الطاعم هادئة سكرى يعربد فيها الحسن والنور

وهكذا بلغ هيامه بالخمر ، واستهتاره في سبيلها ، أن يتغزل .. ليس فيها فحسب ... ولكن في الخادم الذي يحملها ، وفي الحانة التي تحتويها ! !

وأعود أيضا — انصافا للحقيقة والتاريخ — وأقول أن له قصيدة أخرى .. لعلها سابقة لهذه ، يعترف فيها بادمانه الخمر ، ولكنه يلتمس لنفسه الأعذار ، ويعلل هذا الادمان بشقاء الاحباب .. يقول في قصيدته التي نشير اليها :

تقولون سكر وما شربوا كأسي وما شربوا البلوى كما شربت نفسي

ثم يعود فيحاول أن يتخلص من الرد على هذه التهمة فيقول هذا الطلا

أذا قلت قد يس يقولون سادر ... وان قلت مجنون يحملوني إلى رمس
تعديت أياسيه وقومي بوحشتي ... وكم وردوا من مناهل للانس
لقد جهلوا نومي ولم يكرموا غدي ... وياحر قلبي من شقائي في أمس

وكما يعتذر عن ادمانه يعتذر كذلك عن كثير من عيوبه ، وهو يرد على أصدقائه الذين يعاتبونه على انفاقه فيقول ضمن قصيدة له :

أنافق فيها مكرما لمصاحبي ... وأبذل نفسي بها وحباها

فى السجن

وظل هذا الشعر رائج بين الجميع الا أنه يقضي أيامه بوحيدا لا يعرف عن هذه الدنيا المريضة الا أنها سجنا له سجنا فى شعره سجنه . . . اذا وصف حجرته يوم كانت له حجرة ! ! إذن فاسمعه وهو يحكي فصلا آخر من تشرده إسمعه وهو يصف كيف كان المطاف ينتهي به فى ليالى الشتاء القارصة إلى أحد المساجد يأوى اليها :

اذا أذنوا للفجر قمت مسارعا إلى مسجد فيه أصلى وأركع
أصلى بوجدان المرائى وقلبه وبئست صلاة يحتويها التصنع

ولقد كان طبيعيا أن تقوده هذه الحياة التى كان يزاولها إلى السجن مرة بعد مرة . ولكنه حتى فى تلك المحن التى كانت تهبط به إلى أسفل درك . . . حتى فى تلك اللحظات لم ينس أنه شاعر ، ولم ينس أيضا أنه عظيم !

انى لا أحفظ الآن من قصيدتين له عن السجن الا هذين البيتين يصف فيهما دنيا الزنازين بقوله :

بنو آدم من حولنا أم عقارب لها فى الحشا قبل الجسوم دبيب
لقد كنت فيهم يوسف السجن صالحا أفسر أحلاما لهم وأصيب

ويحضرنى وأنا أتحدث عن الديب فى السجن هذا الحادث الطريف حين وقف فى ساحة المحكمة متهما بالاعتداء على آخر . . . وقف

يدافع عن نفسه بتلاوة أبيات من الشعر يثبت بها للقاضي أنه انسان رقيق مهذب لا يحيد الأذى والشجار !

وعندما صدر الحكم بتغريمه جنيهين وقف يستعطف ويقول أنه لا يملك مليما واحداً . . . واشفق عليه القاضي فتبرع هو بقيمة الغرامة وتركها له مع كاتب الجلسة ليسددها له . فما كاد يسمع بذلك حتى صرخ يطالب الكاتب بالمبلغ قائلا . انه سيأخذ الجنيهين لنفسه ، ويستحق بقيمة الغرامة . !!

نصف مجنون !

وكان طبيعيا أن تسفر هذه الصدمات المتوالية عن اضطراب عقلي يقوده إلى مستشفى المجاذيب حيث يقضي هناك بضعة شهور ويخرج منها وهو نصف مجنون !

كان شرود ذهنه ، وضحكته الهستيرية ، والأكاذيب الضخمة التي يطلقها أمام الناس في غير وعي فينفجروا منها ضاحكين ، والنظرات الحادة التي كان يصوبها أحيانا بلا سبب بعد أن يفتح لها حدقتي عينيه ، والهياج السريع لأسباب تافهة وأحيانا بلا أسباب كل هذه كانت الجنون الجزئي الذي ذكرت ، أو هي العاهة المستديمة التي خرج بها من مستشفى الطمأنكة . . .

لقد ظل يصر على أن يعتبر نفسه في حالة حرب مع الناس جميعا ، ومع أصدقائه في المقدمة ، وحتى حبهم له وعطفهم عليه كان يفسره تفسيرات تبعده عن القصد النبيل ، والغرض البريء ، وها هو في حيرته تلك يخاطبهم قائلا :

تملون من وصلي ، ويغضبكم صدي ... فواحيرتي بين العداوة والود
عداوة ذي حقد ، وود منافق ... أألحيا صريعا للنفاق وللحقد
شربت كلا الكأسين سما وعلقما ... فلاعون من ألف ولا رفق من ضد
وليلهو بي الأقران لهوا كأنما ... أنا الكرة الهوجاء تقذفها الأيدي

وكانت لهذه الحرب معارك طاحنة تدور في نفسه ، ومن هنا فإن قليلين من أصحابه هم الذين سلموا من لسانه . . . لقد هجاهم

جميعا ، وكان الاستاذ كامل الشناوى أوفرهم نصيبا من هذا الهجاء

لقد كان صدر الديب مستودعا للاحقاد يوزع منه على الناس بغير حساب ، وكان هو نفسه يعرف هذا ، ويحس به من حوله ويعترف بذلك فى شعره . . أليس هو القائل :

ثمانة العاذلين السود تنصحنى ... فى كل مضطرب الصوت واحدكى

أصبحت أنكر حتى من رثى وبكى ... وكم ذكرت سرقه من مدمع الباكى

فمادح موهباتى مهدر شرفى ... الضمن فى راحتيه نصل سفاك

اذا فتشت نواياه أرى صدراً ... من عاطش الاذى فى لؤم ضحاك

يقض مضجعه شعرى ومنزلتى ... فلا يود سوى بؤسى وإهلاكى

وله أيضا فى هذا المعنى نفسه :

أنا الغريب على الدنيا فعالها ... أعدى عداوى ، يهجونى وأهجوه

فما سمعت على الأعياد تهنئة ... إلا مداهنة يلقى بها فوه . . .

ياقوم مالى من ذنب أدان به ... ما بال نورى .. إن أظهرت تخفوه

لكنها محنة أنتم طواعيتها ... فيها لدهرى ، إن يأمر تطيعوه

ولعل فى باب الطرافة حقا أن الاستاذ أحمد الصاوى محمد كان قد اتفق معه يوما على أن ينشر له ديوان شعره ، وفى اليوم المحدد لكتابة عقد الاتفاق جلس الشاعر إلى الصاوى يتلو عليه قصيدة هجاء جديدة كان مطلعها

بار اللواء لعنت بالشناوى ... ولعنت قبلا بالثقيل الصاوى

وكان الديب قد نسى ان الصاوى قد جاء ذكره فيها فراح يتلوها عليه غير منتبه إلى ما جره عليه نسيانه بعد ذلك. إذ عاد الناشر فرفض ان يوقع العقد او يطبع الديوان !

وللديب عشرات القصائد من هذا النوع ، واكثرها لا يمكن نشره لما تضمنته من الوصف « المكشوف » والألفاظ النابية !

وأحب قبل ان اختم هذا الفصل الذى ورد فيه شيء عن جنون الديب ، ان اذكر هذا الحادث الطريف الذى حدث للديب فى اثناء وجوده بمستشفى المجاذيب .

فقد كان مدير المستشفى يستعرض المرضى ليزن العقول ، وجاء دور الديب فظن ان سرعة الاجابة تستجلب رضاءه فما كاد المدير ينتهى من سؤاله عن اسمه حتى قال له:

إسمى عبد الحميد الديب والنهارده الاربع وبكره الخميس وبعده الجمعة ونحن فى شهر اكتوبر سنة ١٩٢٤ وحضرتك مدير المستشفى . الخ .

فقال له مدير المستشفى ، وهل طلبت اليك هذه الاجابة إنت مجنون ! مخدوه !

قلب خال !

أما عن قلب الديب فقد كان خاليا !

لم يكن فيه ما يغرى النساء . . . لا فى شكله ولا فى جيبه ، وكان هو لا يطمع فى المستحيل ، ولا تكاد تجد فى شعره عبارة غزل واحدة موجهة إلى الجنس اللطيف !

وعلى العكس من هذا فان له أبيات من الغزل يؤانس بها أبانواس ، ومن ذلك قصيدته إلى نشرتها له مجلة أبولو ، واحتفلت بها احتفالا خاصا . . القصيدة التى كان مطلعها على ما أذكر :

أطل يا أيها الرشأ النجى حرام أن أموت وانت حى !

ومن ذلك أيضا تغزله فى صبى الخمارحين وصفه بأنه « أغنت ساجى الطرف مفرور » . . . كتب مرة يصف صديقا وسيما له فقال :

به شجو يكاد المرء يأكله أكلا ، ويشربه دون الطلى كاسا

لو كان مقول غاندي فى طراوته ماقسم الهند اطهارا وانجاسا

ثم اعود ايضا فأمر مروراً سريعا على هذا الطارئ لأستأنف الكلام عن محاسن الشاعر الراحل . . .

عقيدة عمومية !!

كذلك لم تكن لعبد الحميد الديب عقيدة سياسية .. كان يمدح بعض الاحزاب لقاء الاجر الذى يتفق عليه .. وما انفهه ! وكان يعود فيهجوها نظير الأجر أيضا ، أو تحت تأثير الخصومة الشخصية للحزب المهجى ، بل لأى عضو منه ! .

كتب يهجو حزبا سياسيا ـ قد يكون الهيئة السعدية ـ فقال

برامكة وليس لهم رشيد واقيال وكلهمو عبيد
مدحتهمو فاشرفوا بشعرى نظمتهم ولاشرف القصيد

ومن شعره السياسى أيضا ، ما نظمه منذ عام واحد ، تعليقا على المآدب المتعددة التى كانت تقيمها لأعضائها أحزاب المعارضة .. قال متهكما :

أقضى ليالى الطوال على اللضى ياليتنى ياقوم كنت معارضا

وكان حزب مصر الفتاة يشترى منه قصيدة فى كل أسبوع يكتبها عن « جهاد الرئيس » او « بطولة الزعيم » ، او فى اى موضوع من هذا القبيل يحدده له الرئيس نفسه . !!

ولعل فى باب الطرافة حقا ، أن شبان هذا الحزب أيضا ، كانوا يكلفونه « باعداد » بعض القصائد عنهم ، وعن بطولتهم أسوة بالرئيس ، فكانت عنده قصيدة معينة اسمها « الجندى المجهول » ولم يكن عليه إلا أن يغير الاسم كل مرة ، ويبيعها باسم جديد حتى أصبح جميع شبان الحزب جنودا مجهولين !

من الناكرة ؟!

لم يكن للديب على الاطلاق شعراً جديراً بلقب « الشعر » إلا ما كان عن نفسه ، وعن معاناته كما قلنا قبل الآن .. على أن هناك بالطبع فلتات ، ومع ذلك ففي هذه الفلتات كانت له بحياته صلة ولو من بعيد لبعيد !

من أروع ما قرأت له قصيدة عنوانها « وفاة القمر » لا أذكر منها شطرة واحدة لبعد عهدها ، وان كنت أذكر معانيها تماما ... كان الديب يعتقد أن القمر هو شاعر السماء . وكأي شاعر عبقري أصبحت النجوم كلها من حوله وهي تحاربه ، وتحقد عليه ، فالسماء اليوم التي أصيب فيه القمر بالخسوف ، واشتد عليه ذعر الكون كله ، كانت النجوم فرحة جذا الخسوف ، مبتهجة به ، متزلفة مصرع القمر من ليلة لأخرى !

فأي روعة ... إنها نفس قصته كما يرويها .. نفس صورته كما يحاول أن يرسمها لنفسه !

ومثال آخر .. قصيدة أخرى عنوانها « أحزان الأسد » راح يصف فيها ملك الغابة وقد عاد من رحلته فلم يجد شبله ... كان الصيادون قد انتهزوا فرصة غيابه فأخذوا ابنه وفروا به آمنين .

انه يصف في هذه القصيدة دموع الأسد كيف تذرف ، كيف يتوجع هذا السيد المهاب ... كيف يزأر ، وكيف يحقد ،

وكيف يعتزم الثأر ، وكأن الديب في هذه القصيدة أيضا يريد أن يصف نفسه . . . كأنه يريد أن يقول هو أنا هذا الأسد ! !

انني أذكر من قصيدته هذه أبياتها الأولى ، وهي خالية من المعاني . أذانها بداية القصة ولكني أسجلها على كل حال ، قال :

مشى يختال في الغابة له الادغال أوابة
هي اللحظ همته لدى الارزاء وثابة
وئيد الخطو وثبته اذا ما اهتيج غلابة

واروع مافي هذه القصيدة الجو العابس الحزين الذي اضفاه الشاعر على القصة ، هذا الحزن وهذا العبوس الذي تحسه في ألفاظها ، وفي موسيقاها .

وإلى جانب هذا الشعر الجدي ، كانت له ايضا جولاته في الشعر الفكاهي يهجو به خصومه . ومن هذا ما كتبه عن احد البخلاء فقال :

الجود عندكم اضغاث احلام واكلة اللحم من عام إلى عام

ولكنى اعود إلى ما كتبه عن بؤسه . . عن آلامه . . عن الحرمان الذى يتلظى فى اتونه ، فهنا تتجلى عبقرية شاعر فذ ، ينظم من صميم وجدانه ، ولا عجب فأروع الشعر ما صدر عن الشعور . . .

ها هو يصف نفسه ، وقد مل من تكرار « انا » فراح يستعير ضمير الغائب ويتحدث عنه :

اذله الدهر لا مال ولا سكن ... فتى تزيد على انفاسه المحن
اذا سعى فجميع الأرض قبلته ... وان اقام فلا اهل ولا وطن
مهاجر بين اقطار الأسى أبداً ... كأنه بيد الارزاء مرتهن
كأنه حكمة المجنون يرسلها ... بغير وعى فلا تصغى لها اذن

* * *

ثيابه كأمانيه ممزقة ... كأنه وهو حى فوقه كفن
هو الهدى صرفتكم عنه محنته ... ان العزيز مهين حين يمتحن
الا فصونوه من بأسائه كرما ... ولا تخلوه يورى شره الزمن
اذا رأيتم محيل البؤس آض لكم ... من المعارف روضا نبته حسن

ولعل مما كان يزيد فى شقائه ، وفى احساسه بالحرمان ، ما كان يتوهمه من انه أفقر الناس ، وأسوأهم حظا ، واوفرهم نصيبا من الأحزان . . . بل لم يكن يظن ان هناك من يحزن ويتألم ويشقى مثلما يحزن ويتألم ويشقى هو . . وهو يؤكد هذا المعنى قائلا

لم يخلق الحزن إلا فى جوانحنا ولا المدامع إلا فى مآقينا
لو ذاق هذا الورى معشار محنتنا ماقارفوا عيشهم دنيا ولادينا
ولا أقاموا على الدنيا وان ظهروا بصفحتيها سليمانا وقارونا

وهكذا يبلغ بالديب استنكاره لحياته إلى حد أنه ينكر وجوده، ينكر أنه حتى مجرد واحد من الشعب ! !

كيف لا . وهو يعتقد أن النحس توأمه والفقر شريك حياته أليس هو القائل :

تفيأت الدنيا مديد ظلالى وهدء على قوس رواق جلالي
وطال حنينى للغنى ولو اننى حننت إلى وجه الاله بدالى

انه يستغيث من هذا النحس ، ومن هذا الظلم، ويصرخ بذويه فى أبيات من أروع ماظهر في الشعر يبدأها :

يامعشر الديب ، وافى كل مغترب الا غريبكو فى مصر مابانا
قدمتم الشاة قربانا لعيدكو والدهر قدمنى للبؤس قربانا

ومن هذه القصيدة أيضا

مروا على الدار يوم العيد ضيفانا يستمطرون نداها كالذي كانا
والدار لما رأتهم مقبلين لها تعاونت فى البكا أهلا وبنيانا

وقد استرسلت خواطره فى هذه القصيدة وتعددت ، كما كان حال ذهنه المشتت المضطرب ، فراح بعد ذلك يقول:

ليت الأنام كلاب إن كلبتنا لما تزل لحفاظ الود عنوانا
تحملت قسطها فى البؤس صابرة لم تشك جوعا ولم تستجد أنسانا

وتشتت خواطره مرة أخرى فانتقل بعد قليل ليختم قصيدته الرائعة فقال :

من كان يحسدني فليرتقب سحراً
أني على الجوع أطوى الأرض حيرانا
أو يلتمسني لدى الخمار يحبسني
في السجن آنا وفي حانوته آنا

obeikandl.com

الوظيفة الجديدة

ضاق عبدالحميد الديب ذرعا بحياة البؤس والتشرد ، وكانت له أكثر من محاولة لاصلاح حاله ، ولكن الاشاعات التي أثيرت حول أخلاقه سدت الأبواب جميعا في وجهه ، وجعلت كل من يفكر في انتشاله من هذه الحياة يعود فيتردد . . ألم يقولوا أن فلان باشا وعلان بك استخدماه ، وقرروا له المرتب فلم يحتمل حياة النعيم !!

ألم يفتش في كل مكان أن زيداً من الناس آواه في بيته ، ومنحه فراشا وثيراً ، وثيابا نظيفة ، فباعها ، وبددها على ما كان يغرق فيه لشهوته من ملذات ! ؟

قد يكون وراء هذا الدخان كله نار ، وقد يكون لبوهيمية الفنان يد في شيء من هذا ، ولكنها قطعا روايات مختلق بعضها ، ومبالغ في بعضها الآخر . . . إما على سبيل التشنيع ، أو على سبيل التندر والسمر ، وقد سيقت هذه المقولات على كل حال متأخرة

كلا . . بل لقد حدث في أخريات حياته محاولات انتهت بنجاح باهر ، منها أنه تزوج فبدت ثيابه لأول مرة نظيفة ، وبدت حياته مرتبة منظمة ، ثم كان الحادث الضخم في تاريخ الديب ، يوم التقى به وزير أديب في قهوة الفيشاوي ، في سهرة من سهرات رمضان ، ووعده بوظيفة تكفل له حياة هادئة آمنة حتى نهاية

المصرى ، وعين بالفعل فى اليوم التالى موظفا فى وزارة الشئون الاجتماعية ، وقد ظل فى عمله الجديد بضعة أسابيع بالمكتب حتى اضطر أخيرا أن يشكو الأمر إلى معالى الوزير فى بيت من الشعر هو :

بالأمس كنت مشرداً أهلياً واليوم صرت مشردا رسميا

ولكنه على كل حال كان يبدو سعيدا بحياته الجديدة . وبدأت آماله تبدو في نظره وكأنها وشيكة التحقيق . فشارع بجمع قصائده ، ويستعد لطبع ديوانه : أو لعله طبع بعض صفحاته فعلا .

ولكنه فجأة قضى نحبه . . . انتهت حياته في دقائق على أثر نوبة اصابته ، فتحققت بذلك نبوءته في قصيده حين قال :

بيني وبين الغنى خصام وفرقة مابعها التئام
فلو تداني إلى يوما لردته عني الحمام

وانطوت بوفاته صفحة فنان مظلوم ، لم يجد له مكانا في زحام المعاصرين . . .

صاحبه الفقر فازور الناس عنه ، وتجاهلوا عبقريته التي ردت الى الشعر العربي اعتباره امام التاريخ ، إذ ذكروه حتى باللقمة التي يتبلغ بها اذ كانوا مشغولين عن هذا العصفار بما هو أخطر وأهم . . . بالتعليق أمير الشعراء . . . عبقرى من نوع آخر . ومن طراز جديد . . . انه ذلك الذي يقول :

هذا الدلال علاما أكان حقا لزاما

* * *

وبعد ، فلا أحاول هنا أن أعقد مقارنة بينه وبين هذا القزم — القزم رغم طوله — فانى أربأ بعبقرية الأديب أن توضع في كفتي

ميزان مع الشاعر المذكور . . . والشاعر هنا من باب التجاوز في قلب الاوضاع . ! !

وأعود فأقرر أن المساحة التي حددها الناشر لهذه الدراسة لا تتسع لأكثر من هذه العجالة ، وأعجب ما بذلنا فيها من جهد انما هو في تركيزها وايجازها ولعلنا قد ساهمنا فيها في انصاف هذا الفنان ، وهي مساهمة نعترف أنها ضئيلة ، وجهد نعترف أنه لم يأخذ أكثر من ساعتين ولكن عزاءنا الوحيد هو أن هذه المساهمة وهذا الجهد هو أقصى ما سمحت به الظروف . . .

فتحي العصلي

أول فبراير سنة ١٩٤٤

وقعت كثير من الأخطاء المطبعية لم يتدارکها التصحيح في الوقت المناسب فنعتذر عنها ونشير إليها . . .